

طه حسين في ميزان النقد العربي الحديث

"محمد السعيد الزاهري أمودجا"

Taha Hussein under Modern Arabic Critical Review

" Modal of Mohamed Said Zahraoui

أ.د. قردان الميلود

Pr. Dr. KERDANE Miloud

قسم اللغة والأدب العربي - كلية الآداب واللغات - جامعة تيسمسيلت - الجزائر

Kardane.miloud@gmail.com

الملخص

لقد أثار كتاب في الشعر الجاهلي له حسين سنة 1926، عاصفة فكرية ونقدية كبيرة، في أوساط النخب الفكرية والثقافية، ليس في مصر فحسب بل خارج مصر لتشمل كل أقطار العالم الإسلامي تقريبا، و تطورت في ما بعد لمعارك أدبية حامية الوطيس، جرت صاحبها إلى ساحة القضاء، وتم سحب الكتاب من الأسواق، بسبب تشكيكه في الشعر الجاهلي وتعرضه بصحة الوجود التاريخي لسيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام متبينا في ذلك المنهج الديكارتي القائم على الشك.

وعلى الرغم من أن الجزائر كانت تمن تحت وطأة الاستعمار الفرنسي إلا أن هذا الظرف العصيب، لم يمنع أبناءها من التفاعل مع القضايا الفكرية والأدبية المطروحة والمستجدة آنذاك، وفي هذا السياق نجد الكاتب والشاعر والأديب والصحفي محمد السعيد الزاهري قد عبر عن رأيه في هذه القضية التي أثارها طه حسين في كتابه " في الشعر الجاهلي " كما عبر الزاهري عن رأيه النقدي في كل إنتاج طه حسين وموقفه من التراث من خلال الحفر - البحث - في خلفيته الفلسفية والمعرفية.

الكلمات المفتاحية: محمد السعيد الزاهري - النقد العربي - الشعر الجاهلي - ديكارت - الشك.

Abstract:

In 1926, Taha Hussein's book « *On Pre-Islamic Poetry* » set off a huge intellectual and critical controversy among intellectual and cultural elites; not only in Egypt but also in almost all the Muslim world. That controversy escalated into heated literary battles leading to Taha Hussein's trial as well as his book's withdrawal from markets, for casting doubt on pre-Islamic poetry and disbelieving the historical existence of the prophet Abraham and his son Ishmael, peace be upon them, following therein Descartes' critical approach that involves doubting everything.

Even though Algeria was groaning under French colonial oppression, Algerians reacted in that critical juncture to intellectual and literary issues proposed and emerged at that time. In this context, the author, poet, scholar and journalist Mohamed Said Zahraoui put in his two penn'orth about the question raised by Taha Hussein in his book « *On Pre-Islamic Poetry* », and he expressed his critical opinion regarding Taha Hussein's productions and stand with regard to patrimony, through going back to the philosophical and epistemic background of Taha Hussein.

Keywords: Mohamed Said Zahraoui – Arabic criticism – Pre-Islamic poetry – Descartes- Doubting.

مقدمة:

إنّ الباحث-الموضوعي- المتقصي لتاريخ الحركة الوطنية، وهو بصدد الحديث عن أعلامها لا يمكنه إغفال شخصية مهمة تركت بصمتها الجليلة ليس في تاريخ جمعية المسلمين الجزائريين، فحسب بل في تاريخ النهضة الأدبية والفكرية في الجزائر زمن الاحتلال الفرنسي، وأسهمت بدور فعال في نشاط الحركة الوطنية باختلاف تياراتها، ونقصد بهذه الشخصية الشيخ محمد السعيد الزاهري الكاتب الناقد الشاعر الصحفي المصلح الذي تبوأ مكانة مرموقة في تاريخ الصحافة العربية بالجزائر، لذا وجب علينا أن نسلط الضوء على هذه الشخصية الصحفية والأدبية، التي ناضلت بالقلم في سبيل الإصلاح الديني والأخلاقي والسياسي، سواء من خلال مقالاتها الصحفية وجرائدها التي أسسها بالجزائر كالبرق والوفاق والمغرب العربي أو عن طريق مكاتبتها لجرائد عربية ذات سمعة إعلامية في زمنها كجريدة الوزير التونسية، وجريدة الرسالة المصرية، والقبس السورية، والسعادة المغربية وغيرها كثير، ولم تكن بمعزل عما يضطرم في الساحة النقدية والأدبية العربية خاصة بعد الضجة التي أحدثتها الناقد الأديب طه حسين خاصة بعد صدور كتابه في الشعر الجاهلي.

من أجل هذا تحاول هذه المداخلة المتواضعة أن تجيب على جملة من الأسئلة أهمها:

من هو محمد السعيد الزاهري؟

كيف تلقى الأستاذ محمد السعيد الزاهري إنتاج طه حسين؟ وما موقفه على -وجه الخصوص - من كتاب في

الشعر الجاهلي لطه حسين؟

01/ محمد السعيد الزاهري:

محمد السعيد الزاهري، ولد في مدينة ليانة التابعة لولاية بسكرة، وتوفي في الجزائر العاصمة. قضى حياته في الجزائر وتونس.

حفظ القرآن الكريم، وتلقى تعليمه الأولي في مسقط رأسه، واستكمل دراسته الابتدائية على يد مشايخ الأسرة الزاهرية، ثم تتلمذ على يد زعيم النهضة الإصلاحية الشيخ عبد الحميد بن باديس، وقد التحق به في مدينته «قسنطينة». انتقل إلى تونس فالتحق بجامعة الزيتونة ونال منه شهادة التطويح (العالمية). عاد إلى الجزائر فأنشأ جريدة «الجزائر» التي صدر العدد الأول منها في أبريل 1925، وكان شعارها «الجزائر للجزائريين»، كما عمل معلماً في المدارس التابعة لجمعية العلماء، متنقلاً بين أنحاء الجزائر. كان عضواً في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ترأس تحرير أكثر من جريدة أصدرتها الجمعية، منها جريدة «الصراط» و«السنة». الإنتاج الشعري - له مجموع شعري مع ترجمة لحياته نشرت في كتاب: «شعراء الجزائر في العصر الحاضر»، فضلاً عن قصائد نشرت في صحف عصره الوطنية والعربية. الأعمال الأخرى - له كتاب «الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير» - المطبعة السلفية - القاهرة 1948 (مجموعة مقالات نشرت في دوريات عربية من قبل (01)).

إن النظرة الأكاديمية المترقمة التي يتحول معها الناقد إلى دكتاتور نقدي، يُلغي جهوداً نقدية أسست لمرحلة نقدية ناضجة، تأسيساً على غياب النظريات النقدية، هي في الحقيقة طمس لمحنة مهمة من محطات تاريخ النقد الجزائري الحديث.

والباحث في تاريخ الصحافة العربية الوطنية يقف على محاولات نقدية جادة وجريئة خطتها أفلام جزائرية لها قدم راسخة في الكتابة، ومثلما نقد رمضان حمود أحمد شوقي الذي كان في قمة مجده الشعري، انتقد الكاتب الصحفي البار محمد السعيد الزاهري طه حسين نقداً لا ذعاً ولم يشفع لطه حسين شهرته ولا مكانته الأدبية ولا عمادته للأدب العربي، بسبب التوجهات الفكرية المعادية، والكتابات المسمومة - وفق رأي الزاهري - للإسلام وللعرب، قد وثق ذلك مقال تحت عنوان "الدكتور طه حسين شعوي مآكر" (02).. يقول الزاهري: "قرأنا في جريدة "النداء" البيروتية الغراء أنّ الأستاذ الدكتور حسين كتب في جريدة "كوكب الشرق" المصرية فصلاً جاء فيه:

لقد خضع المصريون لضروب من البغي والعدوان، جاءتهم من الفرس واليونان، وجاءتهم من العرب (كذا!) والفرنسيين، وجاءتهم من الإنكليز أخيراً "

فحشر الدكتور طه العرب في جملة الظالمين، الذين ظلموا مصر وحكموها بالبغي والعدوان" (03).

وقد خلّف هذا المقال موجة من الانتقادات اللاذعة التي طالت شخص طه حسين، وانقسم الناس إلى قسمين: قسم يتهم طه حسين بالشعبوية وإثارة النعرات الطائفية والدعوة إلى تمجيد مصر الفرعونية على حساب تاريخ مصر الفاتحين المسلمين، ودعوا إلى إحراق كتبه وخرجت مظاهرات ضده، وقسم ثان يقف إلى جانب طه حسين بدعوة حماية الفكر المتحرّر وحرية الرأي. يصف الزاهري المشهد المصري بعد مقال طه حسين وردة فعله: " ولم يكذب ينتشر طعنه هذا على العرب، حتى قام شباب العربي في سوريا (بلبنائها وفلسطينها) وفي العراق وفي سائر بلاد العرب يستنكرون على طه ويدعون إلى تحريق كتبه، وتظاهروا ضده في الأسواق والطرقات. وكان لهذه الحوادث رد فعل في مصر فقام بعض الأحداث من الذين يدينون بالوثنية الفرعونية يدافعون عن طه حسين بحجة أنه من دعاة "الوثنية الفرعونية" أيضاً. " (04).

ويرد محمد السعيد الزاهري على أحد الشبان وهو يصفه بأنه أحد الأحداث أي المراهقين، ونحن لا ندرى إن كان الزاهري يقصد المراهقين سناً أم المراهقين فكراً، والزاهري له باع طويل في فنّ الكتابة الساخرة. يقول الزاهري: "ونشرت جريدة "النداء" لواحد من هؤلاء الشبان مقالا يدافع فيه عن طه وعن الوثنية الفرعونية، ويزعم أن هذه "الفرعونية" هي خير لمصر من إسلامها وعروبته، ونسي هذا الشاب المحامي أن شباب العرب قاموا على طه لا لأنه من دعاة "الفرعونية" فقط، بل لأنه أيضاً تنقّص العرب وحطّ من كرامتهم، وادعى أنهم اضطهدوا مصر وأذاقوها الخسف والعداب، لا أنهم جاءوها بالرحمة والهدى" (05).

ويتحسر الزاهري على عرب اليوم، وكيف ألفوا الضيم وابتأوا عليه، على خلاف أجدادهم الذين كانت كرامتهم تعني حياتهم، ولو يحملون فعلاً جينات وراثية من أجدادهم لما تجرّأ عليهم هؤلاء الشعبويون، يقول الزاهري: " ولو كنا معشر العرب كما كان آباؤنا "أبأه ضيم" نغضب للكرامة ولا نرضى بالهوان، لقمنا بهذا العمل الواجب قبل اليوم، ولعلّنا هؤلاء الشعبويين كيف يقفون عند أقدارهم لا يتجاوزونها، وكيف يحترمونا" (06).

وينحو الزاهري منح تاريخياً من خلال الحفر عن فكر طه حسين، وعن شخصيته، ومؤلفاته شارحاً ومفسراً لهذه العناصر التي أثرت في طه حسين شخصياً وفكراً، ويُسلّط الضوء على طريقة طه حسين في الكتابة، واستدراجه لفئة الشباب التي ينفذ إليها من جهة العواطف لا من جهة العقل، فيشككهم في تاريخهم العربي الإسلامي التليد، ويقتل فيهم روح النخوة العربية، والقيم الإسلامية، فيفسدها أيّما إفساد، مستعينا في ذلك بمقدرته البارعة على الكتابة وكذا أسلوبه الساحر الجذاب، يقول الزاهري: "للاستاذ طه حسين غاية واحدة، يسعى إليها من يوم ظهر على المسرح إلى هذا اليوم، وهي محاربة العروبة والإسلام، لا يفتأ يعمل لها، ولا يفتّر في طلبها، فهو شعوبي ماكر يعرف كيف يستر "شعوبيته"، ويعرف كيف يخفي غرضه وهواه عن كثير من شبابنا الأغرار، الذين لا يكادون



يدركون مراميه البعيدة إلا ما كان منها مثل هذا الطعن الصريح المكشوف. لقد أوتي طه حسين كل وسيلة من وسائل الفتنة والإغواء، فأسلوبه سهل جذاب وموضوعاته التي يكتب فيها هي الحب والهوى، وما إلى الحب والهوى مما يشوق الشباب ويستهو به، وهو يدخل على الشباب لا من باب العقل والإدراك، ولكن من باب العواطف والشهوات. يقودهم من أهوائهم وشهواتهم إلى حيث يريد لهم من الهلاك والردى، إلى حيث يسلبهم دينهم وإيمانهم، ويستل منهم النخوة والاعتزاز بالعروبة، كما تستل الشعرة من العجين، ثم يملأ نفوسهم ظلمة وكراهية لآبائهم ولعروبهم، ويجعلهم يهيمنون حبا وغراما بالغرب، وبكل شيء غربي، وينفرون من العرب والإسلام، ومن كل ما هو عربي إسلامي. " (07).

ويذهب الزاهري بعيدا في تفسيره لآراء طه حسين المثيرة، على أنه مجرد بيدق من بيداق الاستعمار وأداة من أدواته الفكرية، ونحن نعتقد أن الزاهري من حقه مخالفة طه حسين ونقده، ومناقشة آرائه وردّها، لكن أن يحشره في زمرة العملاء والمتعاونين مع الاستعمار، نعتقد أنه بالغ وقسا عليه في ذلك قسوة شديدة. يقول الزاهري: " وبالجملة، فالأستاذ طه حسين من أكبر أعوان الاستعمار على احتلال عقول أبناء العرب، وهو من أقدر العاملين على توجيه شبابنا في الاتجاهات التي يريدها لهم غلاة المستعمرين " (08).

ويتبع الزاهري تاريخ طه حسين، ومساره التعليمي في الجامعات والندوات، والمحاضرات والخطب التي ألقاها - وهي من الكثرة ما يصعب إحصائها- فيخلص إلى نتيجة مفادها أن طه حسين لم يثن يوما عن العرب، على الرغم من أن الإسلام مولده بجزيرة العرب، ثم يُشير إلى نقطة أخرى يوظفها الاستعمار لتفتيت الدول والأمم، ألا وهي تشجيع النزعات المحلية، والنزعات الطائفية، حتى يسهل عليه السيطرة على الدول واستعمار الشعوب. يقول الزاهري: " لقد درّس الأستاذ طه حسين كثيرا، وخطب وحاضر كثيرا، وكتب كثيرا، ولكن هل تجدون له كلمة واحدة أثنى بها على العرب، أو هل اعترف لهم يوما من الأيام بمكرمة من المكارم ومنقبة من المناقب؟ الاستعمار اليوم يعتقد أن الإسلام والعرب جزءان لا يمكن انفصال أحدهما عن الآخر، أي يعتقد المستعمرون أن العرب لا تقوم لهم قائمة إلا إذا بعث دين الإسلام من جديد، وأن الإسلام لا يبعثه من جديد إلا العرب أنفسهم، ولذلك فهم يسعون جهدهم نحو العروبة والإسلام معا، يعاونون المبشرين المسيحيين بالأموال والنفوذ على تكفير أطفال المسلمين وتنصيرهم، واخترعوا القوميات المحلية في بعض بلدان الإسلام مناهضة للعروبة ومحاربة لها. ومن المؤسف حقا أن كثيرا من العرب لم يتفطنوا لهذا المعنى. " (09).

وينتقل الزاهري بنا سالكا مسلك المنهج التاريخي من الحديث عن شخصية طه حسين إلى الحديث عن مؤلفاته، بدءاً من كتابه المثير للجدل (في الشعر الجاهلي) الذي كان طعنة نجلاء في تاريخ الإسلام، وفي تاريخ الأدب العربي القديم، وفي تاريخهم العام بحكم تربعهم على عرش الفكر قرونا طوال، ويُنحى - الزاهري - باللائمة على العرب الذين سكتوا عن هذا الطعن وعن هذا التشويه بل هناك من استمات في الدفاع عنه باسم حرية الفكر، يقول الزاهري: " فهم حينما أصدر طه حسين كتابه " في الشعر الجاهلي " وطعن فيه على القرآن، ونسب فيه إلى

الرسول ﷺ التخيل ونحو ذلك، سكتوا ولم يقولوا شيئا، ظنا منهم أن الأمر لا يعني إلا المسلمين "الجامدين"، بل كثير من شباب العرب وصحافة العرب نصرّوا طه ودافعوا عنه باسم "حرية الفكر"، ولم يعلموا أن كتاب "في الشعر الجاهلي" إنما هو طعنة نجلاء في صميم العروبة؛ لما هو تكذيب بآيات الله ورسالة "قادة الفكر" إذا أنت قرأتها علمت كيف يتجاهل طه حسين العرب، ويحذفهم جملة واحدة من قائمة المفكرين، ويهملهم إهمالا تاما كأن لم يكونوا "قادة الفكر" في الدنيا قرونا طوالا" (10).

إن كتاب الشعر الجاهلي الذي تناوله الزاهري بالنقد، هو مجموعة من المحاضرات ألقاها طه حسين على طلبة الجامعة 1926 وأثارت سخطا عارما في أوساط الجامعة، ومعارضة شديدة لا سيما من الأزهر الشريف، واتهم طه حسين في إيمانه، وسحب الكتاب من الأسواق لتعديل بعض أجزاءه. وقامت وزارة اسماعيل باشا عام 1932م بفصله من الجامعة كرئيس لكلية الآداب. فاحتج على ذلك رئيس الجامعة لطفي السيد وقدم استقالته، ولم يُعد طه حسين للتدريس بالجامعة إلا في سنة 1936.

يقول ه حسين في مستهل كتابه "في الشعر الجاهلي" موجها كلامه للقارئ: "سأسلك في هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة. أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكرت للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث. والناس يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاما. والناس جميعا يعلمون أن هذا المنهج الذي سخط عليه أنصار القديم في الدين والفلسفة، يوم ظهر، قد كان من أخصب المناهج وأقواها وأحسنها أثرا، وأنه قد جدد العلم والفلسفة تجديدا، وأنه قد غير مذاهب الأدباء في آدابهم والفنانين في فنونهم، وأنه هو الطابع الذي يمتاز به هذا العصر الحديث. فلنصطنع هذا المنهج حين نريد أن نتناول أدبنا العربي القديم وتاريخه بالبحث والاستقصاء، ولنستقبل هذا الأدب وتاريخه وقد برأنا أنفسنا من كل ما قيل فيهما من قبل، وخلصنا من كل الأغلال الكثيرة الثقيلة التي أيدينا وأرجلنا ورؤوسنا، فتحول بيننا وبين الحركة الجسمية الحرة، وتحول بيننا وبين الحركة العقلية الحرة أيضا (11).

ومن الثابت تاريخيا أن طه حسين قد تأثر بالمستشرق الإنجليزي ديفيد مرجليوث الذي سبق عميد الأدب إلى نفي وجود شيء اسمه الشعر الجاهلي: "إذ سلك بها سبيل مرجليوث في الاستنباط والاستنتاج والتوسع في دلالات الروايات والأخبار، وتعميم الحكم الفردي الخاص واتخاذ قاعدة" (12).

ويؤيد محمد الزاهري قرار الوزارة المصرية بفصل طه حسين كأستاذ في الجامعة فيقول: "لقد أحسنَ صدقي باشا" إذ عزل الدكتور طه حسين من منصب عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية، لأنه بهذا العزل قد استراح العرب واستراح المسلمون من شر كثير. وسوف يحتفظ الغرب والمسلمون "لدولة صدقي باشا" بهذه اليد البيضاء أبد



الدهر، ولكننا نتمنى على حكومة مصر أن تحذف جميع كتب طه من جميع مناهج التعليم. وكتب طه كلها شعوبية ومقت. " (13).

لقد بنى طه حسين دراسته لنصوص الشعر الجاهلي، على المنهج الديكارتي القائم على الشك، يعني الشك في قيمة هذا الشعر وفي وجوده التاريخي، وصياغة طه حسين لأخطر نظرية في تاريخ الدرس الأدبي الحديث، وهي "نظرية الانتحال". ويلخص طه حسين هذه النظرية فيما يتصل بالشعر الجاهلي بقوله: "أول شيء أفجؤك به في هذا الحديث هو أنني شككت في قيمة الأدب الجاهلي وألححت في الشك، أو قل ألح على الشك، فأخذت أبحث وأفكر، وأقرأ وأتدبر، حتى انتهى بي هذا كله إلى شيء إلا يكن يقينا فهو قريب من اليقين. ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين، ولا أكاد أشك في أن ما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل جدا لا يمثل شيئا ولا يدل على شيء ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي. وأنا أقدر النتائج الخطيرة لهذه النظرية، لكنني مع ذلك لا أتردد في إثباتها وإداعتها، ولا أضعف عن أن أعلن إليك وإلى غيرك من القراء أن ما تقرأه على أنه شعر امرئ القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو عنزة ليس من هؤلاء الناس في شيء، وإنما هو انتحال الرواة أو اختلاق الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلف القصاص أو اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين (14)."

وقد علق بلاشير على هذا بقوله: "وينفرد طه حسين عن مرجليوث في نقطة واحدة، فهو يعلم مبدئيا، بأن ليس كل ما يسمى بالشعر الجاهلي مصنوعا، ولكن ما بقي من القديم منه قليل لا يمثل شيئا، ولا يدل على شيء، وهكذا فهو بوقوفه موقفا حذرا، اقترب بفكرته من آراء عدد من المستشرقين المعاصرين، أمثال نحو لدزيهر وتور أندره، ووليام مارسايه وتريتون، وغودفروا ديمونين وبرونليس، في نقده الثاني لبحث مرجليوث سنة 1937" (15) وقد أثار هذا الكتاب ردود أفعال شديدة، في داخل مصر وخارجها، فبمجرد أن وقع الكتاب بين يدي الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي حتى كتب مقالا بعنوان (قال إنما أوتيته على علم، بل هي فتنة) في مقالة طويلة استغرقت في الطبعة الثالثة، من كتابه: "تحت راية القرآن، ستة عشرة من صفحة من القطع الكبير، ثم تتابعت مقالاته، في هذا الموضوع، والتي جمعها بعد ذلك في كتاب له سماه (تحت راية القرآن)، وهي تسمية كما ترى تشي بأنه رحمه الله تعالى كان يرى أنه جندي يرفع راية القرآن الكريم ويدافع عنها." (16).

أما الشيخ محمد الخضر حسين فقد علق على زعم طه حسين أن ما يسمى بالشعر الجاهلي إنما هو شعر إسلامي أفرزته الحركة السياسية، متسائلا عن سبب إحجامه حسين وهو الأستاذ الكبير عن إعاءة نماذج شعرية عن ادعائه، ألم يكن من الواجب عليه مثلا: "لم يستطع المؤلف في هذا الفصل الطويل مثلا لشعر جاهلي اخترعته نزعة سياسية، وذلك ما يقتضيه عنوان الفصل "السياسة وانتحال الشعر" وقد أدرك أنه لم يجر في حديثه تحت هذا العنوان، ولم يأت بمقدمات تنتج أن في الشعر الجاهلي ما اصطنع لغاية سياسية." (17).

ويواصل الزاهري تقصي فكر طه حسين من خلال مؤلفاته، وهذه المرة مع كتاب (المجمل) الذي وُضع خصيصاً لطلاب الثانوية، والذي اشترك طه حسين في تأليفه، يعدّه الزاهري أنّه مليء بالشك والريبة، وإن بدا للوهلة الأولى أنه كتاب يخاطب العقل ويعلم الطالب كيف يفكر، إلا أنّ الحقيقة الخفية هي أنّ بمجرد ما إن يفرغ الطالب منه إلا ويجد عقله مشوشاً، محشواً بالشكوك، حول أدبه الذي لا يرى أنّه ذا قيمة، أو ذا بال، فضلاً على أنّ الكتاب يُفقد الطالب حاسة الذوق الرفيع، وهل يكون الأدب والإبداع عموماً إلا ذوقاً، ولعلّ الزاهري يقصد هنا منهج الانطباعيين أو التأثيرين الذين يحكمون على الأدب وفق للذوق والتأثر، "وأبسط صورة للحكم هي أن يعبر الناقد عن رضاه عن العمل الأدبي أو نفوره منه، فيقول مثلاً إنه جيد، أو إنه رديء، وقد يقول إنه حسن أو إنه قبيح" (18).

يقول الزاهري: "وكتاب "المجمل" في الأدب العربي قد اشترك طه في تأليفه، وقد مُلئ هذا الكتاب شكاً وريباً بدعوى أنه يعلم الطالب كيف يفكر، وكيف يبحث. وليس لهذا الكتاب إلا نتيجة واحدة يحصل عليها الطالب عندما يفرغ من قراءته، وهي أنه لا قيمة لهذا الأدب العربي، وليس هو شيئاً مذكوراً، وأنه لا ثقة بالأدباء العرب في كل ما لهم من الروايات والأسانيد. ومعلوم أن كتاباً كهذا "المجمل" أقل ما فيه أنه يفقد الطالب أهم ركن من أركان الأدب الرفيع، وهو "الذوق" الصحيح، والذوق لا ينال بالشك والريب، ولكن بالمحاذاة والتقليد. وإذا كان أكبر شرط لطالب العلم أن يتمرن على البحث والتفكير، فإن أعظم واجب على طالب الأدب أن يتلقى الأدب من طريق الإيحاء والتلقين، وتلك هي سبيل "الذوق" الصحيح السليم لا غيرها. وهذان الكتابان الأخيران قد قررتهما وزارة المعارف في مصر، وفرضتهما على طلاب المدارس الثانوية. وليت شعري كيف يتفق ما في هذين الكتابين مع ما تريده الحكومة المصرية في دروس التربية الوطنية من الطلبة أن يشربوا في قلوبهم حب الوطن واحتراب الآباء والأجداد". (19).

ولا يُخفي الزاهري سروره وإعجابه بما أقدم عليه رئيس الوزراء المصري "إسماعيل صدقي باشا" بعزل طه حسين من منصب العمادة، ومنعه من التدريس ضمن سلك المدرسين بالجامعة ويوجه دعوة للحكومة المصرية بمصادرة كتب طه حسين لأنها خطر على الأمن القومي لما تحمله من عنصرية مقبّية وشعبوية كريهة، يقول الزاهري: "لقد أحسن صدقي باشا" إذ عزل الدكتور طه حسين من منصب عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية، لأنه بهذا العزل قد استراح العرب واستراح المسلمون من شر كثير. وسوف يحتفظ الغرب والمسلمون "لدولة صدقي باشا" بهذه اليد البيضاء أبد الدهر، ولكننا نتمنى على حكومة مصر أن تحذف جميع كتب طه من جميع مناهج التعليم. وكتب طه كلها شعبية ومقت" (20).

ثمّ ينتقل بنا الزاهري مرة ثالثة إلى كتاب آخر لطه حسين لا يقل عن سابقه خطورة ألا هو كتابه الذي سماه "في الصيف"، وهو كتاب فيه دعاية كبرى لدراسة التوراة والاشتغال بها- من منظور الزاهري- بوصفها معجزة في الفصاحة والبيان، ويُقارع الزاهري طه حسين بالحجة الدامغة فيضرب له مثلاً بأدباء لبنان الذين أُشربوا حب



وتلاوة التوراة لكن ذلك لم يؤهلهم لاحتلال الصدارة في الشعر والأدب، وبالمقابل يرى الزاهري أنّ طه حسين لم نسمع دعوة لطفه حسين واحدة لتلاوة القرآن والنهل من بلاغته التي أعجزت أساطين البيان. يقول الزاهري: " فكتابه "في الصيف" فيه دعاية كبرى إلى التوراة وإلى تلاوتها ودراستها. وزعم أنها مورد عميق من موارد الأدب الرفيع العالي؛ ولكنه لم يقل كلمة واحدة يدعو بها إلى تلاوة القرآن، وإلى دراسته كمعجزة للفصاحة وسحر البيان. على أن رأيه هذا هو رأي باطل غير صحيح، فأدباء لبنان مثلاً الذين توفروا على دراسة التوراة وتفهمها وتذوقها لم يكونوا هم المبرزين في حلبة الأدب العربي في هذا العصر الحديث، بل إن عيهم الوحيد هو أنهم يحتذون أسلوب الترجمة الركيك الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل". (21).

وفي محاولة من الزاهري لإقناع القارئ، وتبكيه الكاتب - طه حسين - يضرب مثلاً لأحد الكتاب المسيحيين صاحب الغريال مخائيل نعيمة، والذي يقول الزاهري أنّه لم يفهم منه شيئاً، على الرغم من اقتباسه للفن الجميل والذوق الرفيع من التوراة والإنجيل، ويضرب مثلاً لشاعر مسيحي آخر وهو إلياس أبو شبكة الذي لا يكاد يُبين على الرغم من اطلاعه على التوراة والإنجيل، ويبدو أنّ الزاهري بالغ كثيراً بخصوص مخائيل نعيمة الذي أغنى المكتبة العربية بكتابات وآرائه النقدية لأكثر من ثمانية عقود من العطاء المتواصل المستمر.

يقول الزاهري في سخرية خفية: " سمعت كثيراً بالأستاذ مخائيل نعيمة، وهو من الأدباء العرب المشهورين، ومن الذين تذوقوا كل ما يراه طه حسين من الفن والجمال في التوراة والإنجيل وأردت ذات يوم أن أقرأ له فصلاً نشر في مجلة "المقتطف" فإذا هو يقول: وكان صباح، وكان مساء... ومضى في عبارات على غاية الركاكة والثقل، فو الله ما استطعت أن أقرأ ولا صفحة واحدة من المقال، ولم أدر من أين جاء بهذه التعبيرات التي أنكرها ولا أعرفها، ثم أخذت أطلع التوراة ذات يوم، فإذا هو يقتبس من "نورها ومن جمالها"!

ولا شك أن كثيرين من أمثالي لا يستطيعون أن يتذوقوا هذا الجمال الذي يقول طه إنه في التوراة. والأستاذ إلياس أبو شبكة هو من الأدباء المعدودين، ومن الذين تذوقوا "جمال التوراة" ومع ذلك فهو لا عيب فيه إلا هذه العجمة النابتة التي تشيع في أسلوبه، والتي هي كل ما أفاد من التوراة" (22).

قبل أن يختم الزاهري مقاله حول طه حسين، يُشير إلى الأخطاء الجمّة، والهفوات الكبيرة التي وقع فيها الكاتب المتعلقة بشخصيته، والتي ما كان لها أن تظهر للعيان لولا طيش صاحبها وطبعه الحاد، يقول الزاهري: "وما أريد هنا أن أتبع هفوات طه حسين فهي أكثر من تعدد، وإنما أريد أن أنبه إلى شدوده ونزقه. على أن ما في طبع طه من نزق وطيش يطغى به من حين إلى حين هو الذي جعل العرب يفتنون لشعوبيته ولعصبية على الإسلام." (23).

ويعود محمد السعيد الزاهري إلى غرلة شخصية طه حسين، ونفسيته المولعة بطرق المواضيع الحساسة المتعلقة بالدين، والتاريخ، والتراث، وهي مواضيع - كما يقول الزاهري - تصبّ كلها في خدمة الاستعمار، وهي من غلاة الاستعمار وطه حسين يقتصر دوره على دور ساعي البريد لأنّه تكفل بنشرها وإشاعتها بين الناس، يقول الزاهري:

"إنّ طه لا يكتب إلا في الموضوعات التي يريدها الاستعمار وبالأسلوب الذي يريده الاستعمار، فهو لم يزد على أنه ناشر للأراء والأفكار الوبيئة التي يحب الاستعمار أن تشيع في الذين آمنوا، فالذين اخترعوا الدعوة إلى "الفرعونية" إنما هم غلاة المستعمرين. وكيف يدّعي الوطنية مصري يدعو إلى "الفرعونية" التي خلقها الاستعمار وروج لها؟ ومتى كانت الوطنية هي اعتناق الفكرة التي يدعو إليها المستعمرون؟" (24).

وينبّه محمد السعيد الزاهري جمهور القراء إلى أنّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد أنشأت لجنة للأدب، وعهدت برئاستها له، يتمثل دورها في إعداد قائمة الكتب التي ينبغي على الناشئة من أبناء الأمة قراءتها، وبالمقابل إعداد قائمة للكتب التي يُمنع قراءتها أو يُحذر منها، ويشير إلى أنّ اللوم لا يقع على طه حسين عندما امتهن كرامتهم لكن اللوم كل اللوم لهؤلاء العرب بصحافتهم وتُخبهم، الذين وقفوا وصفّقوا وأيدوا طه حسين. يقول الزاهري: "إنّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانت أنشأت لجنة للأدب، وأسندت أمرها إلى هذا العاجز الضعيف؛ فعزمتنا أن نصدر بيانا دوريا بالكتب التي ينبغي أن يقرأها أبناء هذه البلاد العربية، وبيانا آخر دوريا بالكتب التي ينبغي أن يحذرنا أبنائنا، وربما نشرنا ذلك قريبا غير بعيد.

ولكن هل للصحافة العربية وللمعلمين العرب أن يدعو إلى العروبة ومكارمها، وإلى الكتب التي تدعو إلى العروبة ومكارمها؟ وهل لنا أن نكف عن التنويه بالشعوبيين؟ وهل لنا أن نحترم أنفسنا فلا نقرأ كتابا يطعن على العرب؟ إن العرب هم الذين أغروا طه حسين بنقصهم، فقد أشادت به صحفهم وصفّقوا له تصفيق الاستحسان، فأمعن هو في امتهانهم والطعن عليهم" (25).

يختتم الزاهري مقاله بالإشارة إلى الشخصية اليهودية الصارمة غير المتسامحة مع كلّ من يُحاول التشكيك - ولو عن طريق التلميح لا التصريح - في وجودها، أو الانتقاص من قيمها وثوابتها. وبسؤال استنكاري يدعو العرب للاقتداء باليهود في هذه الجزئية إن لم مات فيهم الشعور بالكرامة. يقول الزاهري "إن اليهود لا يقرءون كتابا فيه الطعن عليهم ولو على طريق التلويح البعيد، فلماذا نحن لا نعامل بالرفض والإهمال كلّ كاتب أو كلّ كتاب فيه شعوبية علينا، إن لم نفعل ذلك احتفاظا بكرامتنا واحتراما لأنفسنا، أفلا نفعل ذلك على الأقل اقتداء باليهود؟" (26).

وبتتبعنا لمقال الزاهري المعنون ب" طه حسين شعوبي مآكر" ظهر جليا أنّ الزاهري قد اعتمد المنهج التاريخي إلى جانب بعض الانطباعات، في نقده لطه حسين وكتاباتة وذلك من خلال تركيزه على شخصية طه حسين ومؤلفاته، في ظل رؤية تاريخية.

الخاتمة:

في خاتمة هذه الورقة البحثية نلخص إلى أن موقف محمد السعيد الزاهري من طه حسين يتقاطع مع كثيرا مع موقف التيار المحافظ كالرافعي، محمد الخضر حسين، محمد الغمراوي، وبدرجة أقل ناصر الدين الأسد وغيرهم، وهو موقف ينطلق من خلفية فكرية تعمل على المحافظة على التراث وعدم الطعن فيه، خاصة وأن عميد الأدب

العربي ينطلق بدوره من خلفية فكرية ديكارتيّة، اتكأ فيها كثيراً على آراء أستاذه المستشرق الإنجليزي **ديفيد مرجليوث** خاصة بعد نشر بحثه «نشأة الشعر العربي» في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية عام 1925.

الهوامش:

- 01- ينظر: صالح خري: الشعر الجزائري الحديث - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر 1984. محمد السعيد الزاهري - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر 1986.
- 02- محمد السعيد الزاهري: الصراط السوي- العدد 04- 19 جمادى الثانية 1352هـ/09 أكتوبر 1933- ص 05/04.
- 03- المصدر نفسه.
- 04- المصدر السابق.
- 05- المصدر نفسه.
- 06- الصراط السوي- العدد 04- 19 جمادى الثانية 1352هـ/09 أكتوبر 1933.
- 07- المصدر السابق.
- 08- المصدر نفسه.
- 09- المصدر السابق.
- 10- الصراط السوي- العدد 04- 19 جمادى الثانية 1352هـ/09 أكتوبر 1933- مصدر سابق.
- 11- طه حسين: في الشعر الجاهلي- دار المعارف للباعة والنشر- تونس- ط.02- 1998- ص 24/23.
- 12- ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية- دار المعارف- القاهرة- ط.05- 1978- ص 380.
- 13- الصراط السوي- العدد 04- 19 جمادى الثانية 1352هـ/09 أكتوبر 1933- مصدر سابق.
- 14- في الشعر الجاهلي- مصدر سابق- ص 19.
- 15- بلاشير ريجيس: تاريخ الأدب العربي- ترجمة إبراهيم الكيلاني - .الدار التونسية للنشر و:م.و.ك.الجزائر. 1986.
- 16- إبراهيم عوض: معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين - مطبعة الفجر الجديدة - مصر - 1987- ص 09.
- 17- الإمام محمد الخضر حسين. نقض كتاب في الشعر الجاهلي. دار النوادر-.سورية-لبنان-الكويت- 1421هـ/2010م- ط.01- ص 230
- 18- عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه- دار الفكر العربي - القاهرة-1425هـ/2004م- ط.09- ص 60.
- 19- الصراط السوي- العدد 04- 19 جمادى الثانية 1352هـ/09 أكتوبر 1933- المصدر السابق.
- 20- المصدر نفسه.
- 21- المصدر السابق.
- 22- المصدر السابق.
- 23- المصدر السابق.
- 24- المصدر نفسه.
- 25- المصدر السابق.
- 26- المصدر نفسه.

قائمة المصادر والمراجع:

محمد السعيد الزاهري: الصراط السوي- العدد 04- 19 جمادى الثانية 1352هـ/09 أكتوبر 1933- ص 05/04

طه حسين: في الشعر الجاهلي- دار المعارف للباعة والنشر- تونس- ط.02- 1998
إبراهيم عوض: معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين - مطبعة الفجر الجديدة - مصر - 1987.

بلاشير ريجيس.: تاريخ الأدب العربي - ترجمة إبراهيم الكيلاني - . الدار التونسية للنشر و:م.و.ك. الجزائر. 1986.
الإمام محمد الخضر حسين. نقض كتاب في الشعر الجاهلي. دار النوادر - سورية - لبنان - الكويت -
1421هـ/2010م - ط. 01

عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه — دار الفكر العربي — القاهرة - 1425هـ/2004م - ط. 09.
ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية - دار المعارف - القاهرة - ط. 05 - 1978.